م4: المعتزلة

تمهيد:

مما لا شك فيه أن ظهور الاختلافات الفكرية والعقدية بين المسلمين، لم يكن في تلك المرحلة التي أخذت فيها طابع المذاهب والفرق، حيث إن هذه الاختلافات لها جذور قديمة، بمعنى أنها لها بدايات مبكرة. "وإذا شئنا الدقة قلنا إن هذه الاختلافات بدأت بالظهور اعتبارا من وفاة النبي ﷺ والتحاقه بالرفيق الأعلى. ففي زمان حياته كان وجوده ﷺ ومبادرته إلى حلّ المشاكل التي قد تنجم بين المسلمين وسد الفراغ وحلّ الإشكالات الفكرية والعقدية التي تتبادر إلى أذهانهم، أضف إلى ذلك نزول الآيات القرآنية وتسليم المسلمين بحكمها وانشغالهم بمهمة نشر الدعوة"[1]، حيث إن كل هذه العوامل اجتمعت، فحالت دون بروز الخلافات الفكرية والعقدية، هذا بالإضافة إلى عامل آخر مهم، ويتمثّل في كون العرب والمسلمين آنذاك لم ينفتحوا على الثقافات الأجنبية حتى يتعرّفوا ويطّلعوا على الأفكار التي يمكن أن تحثّهم على البحث والاختلاف فيما بينهم حولها.

إن الخلاف بدأ يظهر أول مرة، بعد وفاة النبي ﷺ مباشرة، حيث شكّلت مسألة الخلافة (من هو أحق بخلافة النبي ﷺ) أول قضية خلافية، ظهرت بسببها الفرق الإسلامية في القرن الهجري الأول (الشيعة، الخوارج، المرجئة)، فتصادمت آراؤهم في قضية أساسية تفرّعت منها قضايا متعددة.

ولقد شكّلت هذه الاختلافات الأولية مهدا لظهور الفرق والتيارات الفكرية والعقدية الإسلامية، والتي ستزدهر في العصر الأموي، وستعرف أوج انتشارها في العصر العباسي،

---

[1]: فالح الربيعي: تاريخ المعتزلة فكرهم وعقائدهم دراسة في إسهامات المعتزلة في الأدب، الدار الثقافية للنشر، ط1، القاهرة، مصر، د ت، ص13.

ويعد مذهب الاعتزال أكبر هذه المذاهب الفكرية التي عرفها التاريخ الإسلامي على مرّ العصور.

1ـ النشأة والتسمية:

لقد نشأت المعتزلة في العصر الأموي، وبالضبط في بدايات القرن الثاني للهجرة في البصرة، ولم تكن أوّل الفرق الكلامية، بل سبقتها إلى الوجود فرق أخرى كالجهمية والقدرية. لكن المعتزلة كانت أهم فرقة كلامية، عرضت موضوعات علم الكلام[1] في نسق مذهبي متكامل. أما عن أسباب نشأة حركة الاعتزال فهي نفسها أسباب نشأة حركة علم الكلام، حيث إن الحركة قامت عموما "للدفاع عن العقيدة الإسلامية بأساليب الحجاج العقلي، في مواجهة المنحرفين عنها والخارجين عليها، وقد استندت في مواقفها إلى نصوص القرآن والسنة مع استخدام منهج التأويل العقلي للنصوص لتفسير الوحي على مقتضى العقل"[2].

يمكن القول ـ على هذا الأساس ـ إن نشأة المعتزلة كانت نشأة إسلامية بحتة، رغم أن بعض المستشرقين ادعوا أن مصادر هذه الحركة مستوحاة من اليهودية والمسيحية أو المذاهب والديانات الهندية واليونانية، إلا أن الحقيقة هي أن الحركة قامت أصلا بسبب مشكلات إسلامية بحتة، لكن هذا لا ينفي تأثر وتفاعل الحركة مع الفكر والثقافة والعقائد اللاتي احتكت بها في مسار تطورها، خاصة منها الفكر اليوناني الذي عرف رواجا بصفة خاصة في العصر العباسي.

أما عن إطلاق اسم المعتزلة على هذه الحركة ورجالها، فلقد راجت قصة، يعتبرها الكثير من الباحثين الحادثة التي تؤرخ لبداية تداول اسم الفرقة، ولقد أوردها الشهرستاني في كتابه "الملل والنحل"، حيث يقال إنه "دخل رجل على الحسن البصري فقال: يا إمام الدين، لقد

---

[1]: علم الكلام هو علم يقتدر منه على إثبات العقائد على الغير بإيراد الحجج ودفع الشبه.

[2]: محمد علي أبو ريان: تاريخ الفكر الفلسفي في الإسلام (المقدمات العامة ـ الفرق الإسلامية وعلم الكلام ـ الفلسفة الإسلامية)، دار المعرفة الجامعية، ط1، الإسكندرية، مصر، 2000، ص236.

ظهر في زماننا جماعة يكفرون أصحاب الكبائر، والكبيرة عندهم كفر يخرج به عن الملة وهم وعيدية الخوارج، وجماعة يرجئون أصحاب الكبائر، والكبيرة عندهم لا تضر مع الإيمان، بل العمل على مذهبهم ليس ركنا من الإيمان، لا يضر مع الإيمان معصية ولا ينفع مع الكفر طاعة وهم مرجئة الأمة، فكيف تحكم لنا في ذلك اعتقادا؟ ففكر الحسن في ذلك، وقبل أن يجيب قال واصل بن عطاء: أنا لا أقول إن صاحب الكبيرة مؤمن مطلقا ولا كافر مطلقا بل هو في منزلة بين المنزلتين، لا مؤمن ولا كافر، ثم قام واصل فاعتزل في أسطوانة من أسطوانات المسجد يقرر ما أجاب به على جماعة من أصحاب الحسن، فقال الحسن: اعتزل واصل، فسمي هو وأصحابه معتزلة"[1]، ولقد ظهرت عدة تفسيرات أخرى لإطلاق اسم المعتزلة على هذه الفرقة[2]، لكن أقربها إلى الصواب هي الواردة في القصة السالفة، والتي تبيّن تبني المعتزلة فكرة المنزلة بين المنزلتين.

ولقد نسبت الريادة في تأسيس فرقة المعتزلة لكل من عمرو بن عبيد وواصل بن عطاء، كما نجد أنه أطلق على المعتزلة عدة تسميات استحسنوها هم أنفسهم، ك:

ـ الفرقة العدلية

ـ أهل العدل والتوحيد

ـ الموحدة...

في حين أطلق عليهم خصومهم مجموعة من التسميات ك:

ـ المعطلة لتنزيههم الله من الصفات

ـ القدرية لقولهم بأن الإنسان مخير

ـ الجهمية لقولهم بخلق القرآن...

---

[1]: الشهرستاني: الملل والنحل، ص67.

[2]: من بين هذه التفسيرات أن بعضهم قال أن تسمية الفرقة تعود في الأصل إلى جماعة اعتزلوا تبني موقف من الخصام الحاصل حول الخلافة بين علي ومعاوية وما ظهر آنذاك من فرق تدعي الحق.

2ـ الأصول الخمسة للمعتزلة:

يقوم الاعتزال على أصول خمسة من اعتقد بها جميعا، كان معتزليا، ومن أنقص منها أو زاد عليها ولو أصلا واحدا، لم يستحق اسم الاعتزال، وإن شئنا ترتيب هذه الأصول حسب الأهمية، عرضنا لها وفق الترتيب الآتي: التوحيد، العدل، الوعد والوعيد، المنزلة بين المنزلتين، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. إن كل من تبنى ودان بهذه الأصول الخمسة، حتى إن خالف المعتزلة في الفروع، فإنه لن يخرج بذلك عنهم.

2ـ1ـ التوحيد:

يعتبر التوحيد أهم أصل من هذه الأصول الخمسة، وإليه ترجع بقية الأصول، ولقد شغل المعتزلة أنفسهم بالدفاع عن وحدانية الله سبحانه وتعالى، وهو ما يظهر في ردودهم على أهل الشرك الذين يدعون مع الله إلها أو آلهة أخرى، كالدهرية والمجوسية، فأقاموا حججا تثبت وحدانية الله وأنه الإله القديم الواحد، حيث راحوا يؤلفون الكتب والتي من خلالها يثبتون بالحجة الواضحة صحة رأيهم ويردون على كل من يخالفهم من الملحدين وغيرهم...

لما أقر المعتزلة بوحدانيته جلّ جلاله، نسبوا إليه صفة القدم (الأزلية) ونزهوه عمّا هو محدث، فساروا يحاربون كل مذهب يتعارض مع هذه الوحدانية، فنفوا الصفات المحدثات عن الله تعالى لأنها في رأيهم تؤدي إلى الشرك، ولهذا سموا بـ "المعطلة"، فنزهوا بهذا الله عن التشبّه بالإنسان، فـ "أوّلوا جميع آيات التشبيه الواردة في القرآن وأنكروا رؤية الله في الآخرة لأنها تؤدي إلى التشبيه، إذ كيف ترى الباصرة روحا مطلقا"[1].

ولقد لاحظ المعتزلة منذ البداية أن عامة المسلمين اتجهوا نحو قبول المعنى الظاهر للنصوص القرآنية، فوقعوا بالتالي في التصور البسيط الشائع، ومع صدق إيمانهم، فإن فريقا وقع في التشبيه في حين اكتفى فريق آخر بقبول الآيات المتشابهة كما هي دون بحث أو

---

[1]: محمد علي أبو ريان: تاريخ الفكر الفلسفي في الإسلام، ص243.

تعمّق، مفوضين الأمر كله لله سبحانه وتعالى، معتقدين أن العقل البشري معزول عن الوحي وأنه قاصر، لذلك وجب التسليم دون جدل أو تأويل.

حين رأى المعتزلة هذا الموقف، تبنوا موقفا مغايرا، فقالوا بأن العقل قادر على فهم النصوص القرآنية واستنباطها، لذا وجب تأويل الآيات المتشابهة وإقامة الإيمان على أسس عقلية واضحة. فتعيّن عليهم نفي الصفات الجسمية والمكانية والزمانية، استنادا إلى قوله تعالى: «ليس كمثله شيء»، وبالتالي أوّلوا كل الآيات المجسمة للذات الإلهية، فقالوا في الآية الكريمة «يد الله فوق أيديكم» إنها تدل على السيطرة، أي إن الله هو المسيطر على خلقه وله السلطان المطلق.

وفي مقام حديثهم عن التوحيد أيضا، خاضوا في مواضيع عدة منها: نفي الصفاة، خلق القرآن، التشبيه والتجسيم، الرؤية السعيدة...

2ـ2ـ العدل:

يعزى إلى المعتزلة تعميم مفاهيم المسلمين عن العدالة الإلهية، وذلك استجابة لدعوة العقل والمنطق، فهم يرون أن الله يتصف بالعدل وينفون عنه صفة الظلم والجور. لذلك كانت جل مباحثهم مرتبطة بالعدل، حيث تبنوا مثلا موقفا تجاه إرادة الله من عبده، إذ قالوا إن الله يريد الخير لعباده ولا يريد لهم الشر، "لكنه لم يخلق أفعال العباد لا خيرا ولا شرا، ومن ثم فإرادة الإنسان حرّة، وهو خالق أفعاله، ولهذا كان مستحقا للجزاء"[1].

وقد ردّ المعتزلة على من قالوا بأن أفعال الله ليست معللة بغرض وأنها لو كانت كذلك لاستحال تفسير كل هذه الشرور الموجودة في العالم، فقالوا إن مريد الخير خيّر وإن مريد الشر شرير، فيكون الفاعل موصوف بفعله، وبالتالي فالله منزه من أن يكون مريدا للشر، وهو

---

[1]: المرجع نفسه، ص247.

الذي يأمر عباده بالطاعات. وعلى هذا الأساس هناك من كنى المعتزلة بالقدرية[1]، نظرا لأن المعتزلة قالوا بأن العبد له حرية الاختيار، في معارضة واضحة لمذهب الجهمية[2]، التي ترى أن الإنسان لا يقدر على شيء ولا يوصف بالاستطاعة، وإنما هو مجبور في أفعاله وأن الله هو الذي يخلق فيه أفعاله. ليكون الإنسان حسب رأي المعتزلة، "فاعل مختار حرّ الإرادة، يتصرف بهذه القدرة التي منحته إياه العناية الإلهية كما يشاء ويوجهها حسبما يريد، ويستغلها في خلق أفعاله"[3]، ولقد دافع المعتزلة عن موقفهم بالحجج الآتية: تفسير التكليف والوعد والوعيد، تبرير إرسال الرسل، نفي الظلم على الله...

3ـ المنزلة بين المنزلتين:

سبق وأن قلنا، إن القول بالمنزلة بين المنزلتين إثر الحادثة التي جمعت بين الحسن البصري وواصل بن عطاء، هي على الأغلب سبب تسمية هذه الفرقة باسم المعتزلة، فنجدهم قد حكموا على مرتكب الكبيرة أنه لا مؤمن ولا كافر بل فاسق، أي أنزلوه في منزلة بين المنزلتين، ليصبح بهذا مرتكب الكبيرة دون المؤمن وخير من الكفر، لا يرتفع إلى مرتبة الإيمان ولا يهوى إلى حضيض الكفر.

يبدو أن مصدر هذه الفكرة كانت في البداية إسلامية بحتة، إذ إن الكثير من الآيات والأحاديث النبوية تحدثت عن أواسط الأمور، لكن الأكيد أن المعتزلة دعموا هذه الفكرة بمصادر يونانية بعد الاطلاع على ثقافتهم، فأمكنهم الأمر التوسّع في "فكرة المنزلة بين المنزلتين حتى جعلوا منها مبدأ عقليا أخلاقيا، وخطة فلسفية مثلى، وهي خطة الاعتدال في

---

[1]: القدرية: فرقة تغالي في رفض القدر.

[2]: الجهمية: سميت بالجهمية نسبة إلى (الجهم بن صفوان) تقول وبأن كل ما يحدث للعبد مقدر عليه.

[3]: زهدي جار الله: المعتزلة، الأهلية للنشر والتوزيع، ط1، بيروت، لبنان، 19741، ص95.

الأمور، والتوسط بين المتطرفين، والتوفيق بين المتناقضين. وقد آمنوا بصحة هذه الخطة وساروا في حياتهم على هديها، فتركت في تعاليمهم أثرا عظيما"[1].

4ـ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

تبنى المعتزلة فكرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وجعلوه واجبا على سائر المؤمنين كل على قدر استطاعته، إذ إن هذا المبدأ يقضي بمجاهدة كل من خالف حكم الله وأوامره ونواهيه، وذلك استنادا إلى قول الله تعالى: «ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، وأولئك هم المفلحون»[2]، ولقد رأى المعتزلة أن هذا الواجب يبدأ بالقلب، ثم ينتقل إلى استخدام اللسان، ثم إلى استخدام اليد أي القوة. وهو ما يظهر في موقف رائد المعتزلة واصل بن عطاء من الشاعر العباسي بشار بن برد حين تبيّن إلحاده، فلم يسكت عنه حتى نفاه من البصرة إلى حرّان، حيث أقام إلى أن مات واصل، ثم عاد إلى البصرة.

5ـ الوعد والوعيد:

في مسألة الوعد والوعيد، قال المعتزلة إن الله صادق في وعده ووعيده، فإذا خرج المؤمن من الدنيا على الطاعة والتوبة، استحق الثواب، أما إذا خرج منها وقد ارتكب الكبائر بدون أن يتوب، خلد في النار، لذلك تبنى المعتزلة موقفا معارضا لكل من قال بالشفاعة، لأن هذه الأخيرة تتعارض مع الوعد والوعيد، فلا أحد يمكنه أن يشفع لأحد أمام الله، بل كل نفس ستجد الجزاء بقدر العمل، فإذا كان العمل صالحا كان الثواب، وإذا كان سيئا كان العقاب.

---

[1]: المرجع نفسه، ص56.

[2]: سورة النساء، الآية 116.

3ـ فرق المعتزلة:

يتفق جل الباحثين أن ما يجمع المعتزلة جميعا، هي الأصول الخمسة، وهم أنفسهم يقرون بذلك، وبالتالي لا يمكن الحديث عن شخص وننسبه إلى هذه الفرقة أو هذا المذهب وهو لا يتبنى هذه الأصول الخمسة. بدأ الاعتزال محدود التفكير وضيّق الآفاق، لكن سرعان ما تعمّق البحث عند المعتزلة في عدة قضايا تفرّعت من الأصول الخمسة بسبب مجموعة من العوامل أهمها، انغماسهم في الفلسفة اليونانية التي بدأوا يدرسونها والتي أمدّتهم بأفكار جديدة ومواد للبحث والنظر، بالإضافة إلى مبالغتهم في استخدام العقل وعدم تقييد هذا الأخير.

إن هذه العوامل هي التي أدّت إلى ظهور الخلاف بين المعتزلة، فبعد أن اشتد الحوار بين روادها، انقسمت الفرقة إلى "اثنتين وعشرين فرقة، لكل واحدة منها أفكارها وآراؤها الخاصة وتتبع كل فرقة أحد رؤوس الاعتزال البارزين"[1]، وهي كالآتي: الواصلية (نسبة إلى واصل بن عطاء)، العمرية، الهذلية، النظامية، الثمامية، المعمرية، الحماريّة، البهشمية، الكعبية، الجبّائية، الشحامية، الخياطية، الجاحظية، الصالحية، المويسية، الحائطية والحدثية، الإسكافية، الأسوارية، الجعفرية، المردارية، الهشامية، البشرية.

5ـ خطب المعتزلة:

يقول عبد الرحمان الخياط: "فلسنا ندفع أن يكون بشر كثير يوافقنا في التوحيد، ويقولون بالجبر، وبشر كثير يوافقنا في التوحيد والعدل، ويخالفونا في الوعد والأسماء والأحكام، لكن ليس يستحق أحد منهم اسم الاعتزال حتى يجمع القول بالأصول الخمسة: التوحيد، والعدل، والوعد والوعيد، والمنزلة بين المنزلتين، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فإذا اكتملت في الإنسان هذه الخصال الخمس، فهو معتزلي".

---

[1]: عواد بن عبد الله المعتق: المعتزلة وأصولهم الخمسة وموقف أهل السنة منها، مكتبة الرشد للنشر والتوزيع، ط2، الرياض، المملكة العربية السعودية، 1995، ص52.